

البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري "السادس عشر الميلادي" على ضوء الوثائق التركية

د. أحمد فؤاد متوحي
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ الإسلامي
بكلية العلوم الاجتماعية

برزت أهمية بناء أسطول لدى العثمانيين ، بعد أن عبروا بحر مرمرة وأخذوا يفتحون المدن والقلاع هناك ، وبعد أن مدوا أملاكهم في الأناضول حتى أشرت على بحر مرمرة وبحر إيجه . وأصبح من الضروري لهذه الدولة الناشئة ، أن تبني أسطولاً قوياً ، لفتح بعض الجزر في بحر إيجه وفي البحر الأبيض المتوسط ، لتأمين السواحل العثمانية ، ولضمان انتقال الجيش العثماني في أمان من الأناضول إلى البلقان للقيام ببعض المعارك . وكانت هناك ضرورة ملحة أخرى جعلت العثمانيين يعجلون بإنشاء الأسطول وتقويته باستمرار ، وهي مجابهة الدول البحرية القوية كالبندقية وجنوه ، كما أن سفن البيزنطيين وسفن البابا كانت للدولة العثمانية بالمرصاد .

بدأ السلطان بايزيد الأول (الصاعقة) ٧٩٢ — ٨٠٥ هـ (١٣٨٩ — ١٤٠٢ م) يدرك أهمية بناء أسطول عثماني ، فأمر صاروجه باشا سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩٠ م) بإنشاء أسطول بحري في مدينة غاليبولي الساحلية^(١) .

وقد ظهرت الحاجة ماسة لتقوية الأسطول العثماني أثناء قيام السلطان مراد الثاني ٨٢٤ — ٨٥٥ هـ (١٤٢١ — ١٤٥١ م) بالحرب في معركة وارنه ضد القوات الصليبية ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) (المكونة من : المجر ، بولونيا ، الأفلاق ، الصرب ، الألمان) فقد اعترضت سفن البندقية قوات الإمداد العثمانية أثناء عبورها بحر مرمرة إلى البلقان . وكان مراد الثاني في مسيس الحاجة لهذه القوات ، لأنه لم يوفق في التصدي لهذا الحشد الهائل من الصليبيين . ولم تقو هذه القوات على العبور ، إلا بعد أن استعانت بأسطول جنوه عدو البندقية . ومن الجدير بالذكر أن المنافسة كانت شديدة بين الأساطيل التجارية البندقية والجنوية ، وكان العداء بينهما سافراً .

اهتم السلطان محمد الثاني (الفاتح) ٨٥٥ — ٨٨٦ هـ (١٤٥١ — ١٤٨١ م)

(١)

Ismail Hakki Uzuncarsili : Osmali Tarihi, Cilt 2, s. 29, Ankara, 1964.

بالأسطول ، فأولاه أهمية كبيرة ، نظراً لأنه كان يعترم فتح القسطنطينية . وقد اتخذ من ميناء غاليبولي مركزاً للأسطول العثماني . وجرت العادة لديه أن يجعل من أمير سنجق غاليبولي أميراً للأسطول العثماني باسم «أمير البحر»^(١) . وقد ظهر عجز الأسطول العثماني بالنسبة للأساطيل الأوربية عند قيام السلطان محمد بحصار القسطنطينية ، إذ تمكنت قطع معدودة من الأسطول الجنوبي من اختراق الأسطول العثماني في بحر مرمره ودخول القرن الذهبي . وبعد فتح القسطنطينية ، أمر الفاتح أمير الأسطول العثماني بفتح بعض الجزر في بحر مرمره ، لتأمين الشواطئ العثمانية . كما أمر ببناء ترسانة في استانبول^(٢) .

كانت أساطيل البندقية والبابا ونابولي تعترض الأسطول العثماني في البحر من آن لآخر ، وتسترد منه بعض جزر بحر ايجه التي يتمكن من فتحها . وكان الأسطول البندقي يعتدي على بعض الموانئ التابعة للعثمانيين مثل غاليبولي . كما كان يمر بالدردنيل (مضيق جناق قلعه) بحرية ، دون أن يتمكن الأسطول العثماني من التصدي له . وبمرور الأيام زادت أهمية جناق قلعه ، وأصبحت الضرورة ماسة لإحكام غلق المضيق أمام سفن أعداء الدولة العثمانية . فأمر محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية بإنشاء قلعتين عند جناق قلعه ، إحداهما في البر الآسيوي والأخرى في البر الأوربي . وتعرف هاتان القلعتان بـ (كليد البحر)^(٣) و (سلطانية) . وقد تم بناء القلعتين خلال عام واحد سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م)^(٤) .

وقد استفاد العثمانيون — في بادئ الأمر — من إمارات الأناضول الواقعة على السواحل في بناء السفن والأساطيل . فقد استعانوا بخبرة أولئك الذين سبقوهم^(٥) .

(١) كانت الوظيفة حتى أيام بربروسا تمنح القبطان إلى جانب كونه أميراً للبحر حكم سنجق غاليبولي الذي ألحق إليه قضاء غلطة وإزميد (نيقوميديا) . ومن المفهوم أن غلطة كانت تتبع له بسبب سكانها الجنوبيين الذين دعاهم الفاتح للتعاون مع الأسطول ، وإزميد لأنها كانت تحوي أحسن مصادر الأخشاب اللازمة لبناء السفن . [هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ج ١ ص ١٤٧ . القاهرة ١٩٧١] .

(٢) Ismail Hakki : Gecen Eser, Ayni Sayfa.

(٣) كليد : كلمة فارسية الأصل ، معناها : قفل ، أو إحكام .

(٤) ابن كمال : تواريخ آل عثمان ، ص ١٠٠ مخطوطة بمكتبة الفاتح .

(٥) Ismail Hakki : Ayni Eser, S. 31.

وأولى السلطان بايزيد الثاني ٨٨٦ — ٩١٨ هـ (١٤٨١ — ١٥١٢ م) للأسطول أهمية ،
لتأمين فتوحاته في البلقان .

بدأت الكشوف الجغرافية تظهر في أوروبا في أوائل القرن العاشر الهجري (أواخر الخامس
عشر الميلادي) ، فقد اكتشف فاسكو داجاما سنة ١٤٩٨ م طريق رأس الرجاء الصالح .
وقد أحدث هذا الكشف تحولاً خطيراً في البحرية الأوربية ، أثر بطبيعة الحال على التجارة
العالمية وغير مجراها . كانت تجارة الشرق تنقل بالسفن العربية من بلاد الهند إلى البحر الأحمر
حتى ميناء السويس ، ثم تنقل بالبر من السويس إلى القاهرة ، ومنها إلى الاسكندرية أو تمر
بالخليج العربي حتى تصل إلى ميناء البصرة ، ثم تنتقل براً إلى سوريا . وتعبير البحر الأبيض
بعدها إلى أوروبا .

كان الممالك يحصلون مكوساً باهظة على هذه البضائع التي تمر في أراضي دولتهم . كما
كان البنادقة ينقلون هذه التجارة بسفنهم وعلى نفقتهم إلى أسواق أوروبا ، ويحصلون مكوساً
عليها أيضاً . لكن البرتغاليين استطاعوا بكشوفهم ، أن يغيروا هذه الطرق التجارية العابرة
من خلال الأراضي العربية . ويجعلونها تمر عبر طريق رأس رجاء الصالح . ومنذ أن استولى
البرتغاليون على (جوا) سنة ١٥٠٦ م ، تمكنوا من إرساء قاعدة هامة لهم في غرب الهند ،
انطلق منها أسطولهم للسيطرة على الشواطئ المؤدية إلى البلاد العربية ^(١) . ثم بدأوا يغلقون
البحار العربية كالبحر الأحمر والخليج العربي . فقد تمكن القبطان البرتغالي البوكيرك سنة
٩١٩ هـ (١٥١٣ م) من الاستيلاء على سوقطره المتحكمة في مدخل باب المندب . كما استولى
على بوغاز هرمز المتحكم في مدخل الخليج العربي سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) . وبهذا توقفت
التجارة عبر البلاد العربية ، وأحدثت رد فعل سيء على اقتصاديات المنطقة العربية ، وعلى
تجارة البندقية .

وهكذا استطاع البرتغاليون السيطرة على شواطئ المحيط الهندي ، وجعلوا هذا المحيط
منطقة مغلقة عليهم ، ثم سيطروا على تجارة الهند ، وعلى طرق التجارة المتجهة من الشرق
إلى الغرب ، وقصروها على أنفسهم .

(١) Parry and Others : A History of The Ottoman Empire To 1730, p. 89, Cambridge University Press, 1976.

حدثت صدامات عديدة بين الممالك في عهد قانصوه الغوري ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ (٥٠١ — ١٥١٦ م) وبين البرتغاليين ، لفك الحصار المضروب حول المنطقة ، والذي يهددها بالاختناق . وقد استنجد حاكم الكجرات بالهند محمود خان الأول ١٤٥٨ — ١٥١١ م بالغوري ، وطلب منه العون العاجل ضد مظالم البرتغاليين في المنطقة واعتداءاتهم . فأرسل السلطان المملوكي اسطوله بقيادة حسين بك سنة ١٥٠٨ م ، ولكن هذا الأسطول هزم أمام البرتغاليين في عدة معارك ، ولم يتمكن من الصمود . وكانت أقصى المعارك هي موقعة ديو البحرية على شواطئ الهند سنة ١٥٠٩ م . وهي الموقعة التي حطم فيها القبطان البرتغالي دالميدا الأسطول المملوكي وأصابه بخسائر فادحة ، فعاد إلى مصر . ووجد حاكم ديو نفسه وحيداً أمام البرتغاليين ، فعقد معهم الصلح^(١) . وقد جعل هذا الصلح البرتغاليين يتفاوضون مؤقتاً عن الاستيلاء على ديو ، خاصة وأن سياسة دالميدا كانت تقضي بعدم التوسع في الاستيلاء على الشواطئ البرية ، إلا بالقدر الذي يتيح لهم السيطرة على البحر^(٢) .

وبعد ذلك ، تيقن البرتغاليون من ضعف الدولة المملوكية ، وعدم تمكن أسطولها من مواجهة الأسطول البرتغالي ، فسعوا إلى الاعتداء على بعض المناطق العربية في عدن وفي البحر الأحمر ، وقد دفع تماديهم في العدوان ، الممالك إلى التصدي لهم مرة أخرى ، ولكن دون جدوى ، لأن البرتغاليين كانوا يتفوقون على الممالك في القوات البحرية بشكل ملحوظ^(٣) . وكانت البرتغال من الدول البحرية التي تملك الأساطيل القوية في ذلك الوقت ، بعكس الدولة المملوكية التي لم تكن من الدول البحرية ، بل كانت من الدول التي تملك الفرسان الأشداء في البر . وكان الممالك كذلك لا يملكون الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء السفن . كما لم يكن لديهم العدد الكافي من الصناع والمهندسين المهرة الذين يقومون على صناعة هذه السفن . وكانوا يتغلبون على هذه الصعوبات بالاستعانة بالدول الصديقة لهم^(٤) .

(١) أنظر : Durto Barbosa : A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth Century. Translated by Henry Stanley, p. 61, London, 1866.

(٢) أنظر : M. Longworth Dames : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth century. Journal of the royal Asiatic Society, part I, p. 11, London, 1920.

(٣) Ismail Hakki : Gecen Eser, s. 391, 392.

(٤) Stripling : The Ottoman Turks and The Arabs 1511-1574, p. 31, Urbana, 1942.

وانهارت جهود المالك لحل هذه المشكلة ، بانهار دولتهم . وتم للبرتغاليين تطويق المنطقة العربية وتهديدها ، ومنع التجارة من المرور عبر مياهها أو أراضيها . وازدادت جرأتهم ، فاعتدوا على المدن الساحلية في البحر الأحمر والخليج العربي . وسيطروا على حركة الملاحة في الخليج وعلى التجارة التي كانت تمر به ، منذ أن استولى البوكيرك على هرمز . وقد تمكن البرتغاليون من إخماد الثورات التي كانت تقوم ضدهم من آن لآخر في مناطق الخليج التي سيطروا عليها ، مثل هرمز والبحرين ومسقط ^(١) .

وفي سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) تمكن السلطان سليم الأول ٩١٨ — ٩٢٦ هـ (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) من فتح الشام ومصر وضم الحجاز إلى الامبراطورية العثمانية . فانتقلت تبعة مواجهة البرتغاليين إلى الحكم الجديد .

وقد أدرك سليم أهمية الأسطول في تأمين الإمداد لجيشه أثناء قيامه بفتح الشام ومصر . فأبحر الأسطول متجهاً إلى شواطئ الشام أولاً أثناء تحركه من استانبول في جمادي الأولى ٩٢٢ (٥ يونيو ١٥١٦) ^(٢) . وبعد ستة وثلاثين يوماً من إعدام طومان باي في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣ — (١٣ أبريل ١٥١٧ م) ، وصل الأسطول العثماني الذي كان مقرراً أن يشترك في فتح مصر إلى شواطئ الإسكندرية في ٢٨ ربيع الثاني (١٩ مايو) ، وكان مكوناً من ٣٠١ قطعة بحرية . تفقد السلطان الأسطول ، ثم أمره بالعودة إلى استانبول ، بعد أن قضى ٥٧ يوماً في الاسكندرية . وقد استقلت بعض العساكر التي اشتركت في الفتح . كما اصطحب الأسطول العثماني عند عودته المراكب المملوكية التي وجدها في شواطئ الاسكندرية ^(٣) .

وقد أصدر سليم أمره وهو في مصر بإرسال سلمان الرئيس ^(٤) قائد الأسطول المملوكي في

(١) أنظر Arnold wilson : The Persian Gulf, an Historical Sketch from the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century, 2 ed., pp. 121-123, London, 1945.

Ismail Hakki : GecenEser, s. 283.

(٢)

Yilmaz Oztuna : Türkiye Tarihi, cilt 5, s. 57, Istanbul, 1964.

(٣)

(٤) الرئيس : لقب يطلق على ربانة السفن الشراعية . وقد تغير اللقب إلى قبطان بعد القرن السابع عشر الميلادي .

Mehmet Zeki Pakalin : Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri, cilt 3, s. 24, Istanbul, 1971.

البحر الأحمر إلى استانبول ، للاستفادة من خبرته ومهارته . وقد قرر سليم بعد عودته إلى استانبول أن ينشيء ترسانات بحرية على غرار الترسانات البيزنطية التي تهدمت أثناء فتح القسطنطينية . ولكن المنية لم تمهل سليما حتى يتم مشروع الإنشاء الذي كان يهدف إليه . ويقدر عدد الترسانات التي أراد أن يقيمها بثلاثمائة ترسانة ، لفتح بلاد الفرنجة على حد قوله^(١) . وقد احتلت الترسانة التي بناها السلطان سليم بالقرب من استانبول ، المكانة الأولى ، ثم احتلت ترسانة غاليليوي المركز الثاني ، إلى أن فقدت أهميتها بنهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)^(٢) .

وفي عهد سليمان الأول (القانوني) ٩٢٦ — ٩٧٤ هـ (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) زادت أهمية الأسطول العثماني حيث أصبحت الدولة العثمانية إمبراطورية مترامية الأطراف . وقد اهتم القانوني بالأسطول اهتماما بالغا ، حيث كان عليه أن يواجه البندقية وجنوه وأسابانيا في البحر الأبيض المتوسط ، وان يتصدى للبرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر العربي والبحر الأحمر . وقد اشتد نشاط القرصنة في البحر الأبيض المتوسط في عهد القانوني ، وكان القرصنة فضلاً عن مهاجمة السفن في عرض البحر يغيرون على السواحل من آن لآخر . وقد استلزم هذا من السلطان أن يقوي أسطوله ، ويستعين ببحارة مهرة . وكان للدور الذي لعبه خضر وأخوه عروج (خير الدين بربروسا وأخوه) ، بعد ان انضوى كلاهما تحت حكم الدولة العثمانية باختياره ، أثر كبير في نمو البحرية العثمانية وازدياد نشاطها في البحر الأبيض المتوسط وفي شمال أفريقيا خاصة .

وبعد استيلاء البرتغاليين على مدخل البحر الأحمر والخليج العربي ، ضربة سياسية واقتصادية للعثمانيين ، بعد أن فتحوا الشام ومصر وضموا الحجاز في عهد سليم الأول وفتحوا بغداد واليمن وضموا البصرة في عهد سليمان القانوني .

وقد حانت الفرصة أمام القانوني لمواجهة البرتغاليين ، فقد أرسل إليه بهادر شاه سلطان الكجرات يطلب منه مساعدته ضد اعتداءات البرتغاليين سنة ١٥٣٥ م . طلب سلطان

(١) لطفی باشا : تاریخ لطفی ، ص ٥٩ استانبول ١٣٤١

Ismail Hakki : Ayni Eser, s. 299.

(٢)

الكجرات أسطولا وجنودا نظير مقابل من الذهب أرسله إلى مكة المكرمة على سبيل الأمانة .

فكر السلطان العثماني في تلبية نداء الاستغاثة ، فبدأ يعد العدة للنجدة . وأصدر أمره إلى سليمان باشا الخادم — أمير مصر سابقاً وأمير الأناضول في ذلك الوقت — لكي يبني السفن اللازمة في ترسانة السويس التي كانت موجودة منذ عهد المماليك ، ثم يقودها إلى شواطئ الهند . وأرسل إليه عشرين سفينة محملة بالأخشاب واللوازم من الأناضول ، بقيادة صالح الرئيس ، فأبحرت إلى الاسكندرية ومنها نقلت هذه الأشياء إلى السويس . وقد تمكن سليمان باشا من بناء ست وسبعين سفينة ، حملها بسبعة آلاف جندي ، ثم أبحر على رأسها إلى الهند في المحرم ٩٤٥ هـ (يونيو ١٥٣٨ م)^(١) .

رأى سليمان باشا وهو في طريقه في البحر الأحمر أن يؤمن أملاك الدولة العثمانية في اليمن والحجاز ومصر وبلاد الحبشة ، فقرر الاستيلاء على عدن . فكر سليمان في حيلة لكي يقضي على عامر بن داود حاكم عدن من سلالة بني طاهر ، فاستدعاه إلى سفينته ، ثم أمر بصلبه على صاريها . وعين مكانه واحداً من حاشيته التي أتت معه وهو بهرام بك ، ثم واصل سيره بعد ذلك إلى الهند^(٢) .

وعندما وصل الأسطول العثماني على مشارف الهند ، وألقى مراسيه عند موضع يقال له «مظفر آباد» على سواحل جزيرة ديو الواقعة غرب بلاد الهند . وجد سليمان باشا أن البرتغاليين قد قتلوا بهادر شاه في جزيرة ديو في رمضان ٩٤٣ هـ (فبراير ١٥٣٧ م) ، لاثامه بمراسلة العثمانيين سراً لطلب مساعدتهم ضد البرتغاليين^(٣) . وتولى بعده حفيد أخته ميران محمد شاه فاروقي . ولكن البرتغاليين لم يعجبهم الحاكم الجديد ، فساعدوا محمود شاه الثالث على تولي العرش ، وهو من نفس الأسرة الحاكمة وابن أخ لبهادر .

Ismail Hakki : Gecen Eser, s. 393, 394.

(١)

(٢) أنظر : قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي : البرق الجاني في الفتح العثماني ، ص ٨٠ الرياض ١٣٨٧ (١٩٦٧)

Serjeant : The Portuguese of the South Arabian Coast, p. 75, Oxford, 1963

(٣) أنظر :

تحالف محمود شاه الثالث مع البرتغاليين ضد سليمان باشا . ولكن سليمان هذا لم تلن قناته ، بل صمم على مهاجمة قلعة ديو بالمدافع القوية التي أتى بها ، وتمكن من السيطرة على بعض المواقع . ولكن القلعة قاومت مقاومة عنيفة رغم شدة الحصار الذي استمر عشرين يوماً . وفي تلك الأثناء ، وصل الأسطول البرتغالي ، فتغير الموقف ، وأصبح في غير صالح العثمانيين . فاضطر سليمان باشا لرفع الحصار ، وقرر العودة إلى استانبول^(١) ، وقد وصل إلى ميناء المخا اليمني على البحر الأحمر في ٢٥ ديسمبر ١٥٣٩ (٩٤٥ هـ) . فقتل حاكمه ناخدا أحمد ، وعين مكانه نائب غزه مصطفى بك .

ومنذ أن استولى البرتغاليون على ديو ١٥٣٨ م ، أصبحت المعارك مستمرة بين العثمانيين والبرتغاليين على الشواطئ العربية وفي الخليج العربي خاصة . وبعد أن فتح العثمانيون البصرة لأول مرة ١٥٤٦ م ، أنشأوا هناك أسطولاً صغيراً وترسانة . ثم إنهم استولوا بعد ذلك على سواكن على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر ، ثم فتحوا مصوع ١٥٥٧ م ، ليتجنبوا تأثير التحالف بين مسيحي الحبشة والبرتغاليين عليهم .

كانت الجهود لإنشاء أسطول في البحر الأحمر والخليج العربي لمقاومة البرتغاليين ، تتطلب من العثمانيين إنفاقاً هائلاً لإعداد الرجال والمعدات . وكان عليهم أن ينقلوا المستودعات والمعدات والمدافع والأخشاب براً إلى السويس ، أو إلى البصرة عبر نهري دجلة والفرات . إن نظم التشييد الناجحة في البحر الأبيض المتوسط لا يمكن أن تنفع في المياه العربية . وينبغي أن يوجد الفنيون والجماعات المسلحة على أعلى درجات المهارة وتيسر أطقم السفن المناسبة . وعلى الرغم من ذلك ومن بعض الصعوبات الأخرى ، كالافتقار إلى المواني الصالحة في الشواطئ العربية ، فقد حقق العثمانيون نجاحاً لا يستهان به . ومن المؤكد أنه لم يكن لدى البرتغاليين قبيل موت السلطان سليمان القانوني خاصة ، القوة التي تمكنهم

(١) يذكر المؤرخ المعاصر للفترة ، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (٩١٧ — ٩٩٠ هـ) في كتابه ، أن سيرة سليمان باشا الخادم السيئة ، التي سبقتها إلى بلاد الهند — والتي تلخص في ميله باستمرار لسفك الدماء كأستاذة السابق السلطان سليم الأول الذي رافقه ، وغلظة قلبه وقسوته — كانت العامل الحاسم في عدم إقدام سلطان الهند خدائونداخان أو حاكمه على الكجرات محمود شاه الثالث ، على مساعدته في الحرب ضد البرتغاليين ، مما دفعه إلى الخوف من مواجهتهم بمفرده والعودة إلى دياره . [البرق البهائي في الفتح العثماني ، ص ٨٢ — ٨٤] .

من تحقيق السيطرة المطلقة على المحيط الهندي . ولو كان المسلمون ألقوا بثقلهم ودفعوا بقوتهم في هجوم مضاد ، لأمكنهم إحياء طرق التجارة القديمة عبر البحر الأحمر والخليج العربي^(١) .

اهتم العثمانيون بمد نفوذهم حتى مداخل المياه العربية في الجنوب اتقاء شر البرتغاليين ، بعد أن فشلوا في التصدي لهم على مشارف الهند . فأرسل السلطان سليمان القانوني قائده سليمان باشا الخادم لكي يشارك مع الجيش المحارب الذي يقوده الصدر الأعظم إبراهيم باشا في فتح بغداد . وقد تم للعثمانيين فتح المدينة في ٢٤ جمادي الثانية ٩٤١ (٣١ ديسمبر ١٥٣٤) . وبعدها دخلت البصرة والقطيف والبحرين في طاعة العثمانيين^(٢) .

ومنذ أن دخلت البحرين في طاعة العثمانيين ، جعل السلطان سليمان القانوني الحكم فيها وراثياً في أكبر أبناء جلال الدين مراد الذكور . ولكن جلال الدين مات ، قبل أن يبلغ ابنه الأكبر سناً يتيح له تقلد المنصب من بعده . فوجه السلطان فرماناً لأخيه شهاب الدين ، لكي يتولى مكانه . ومن بعده تتولى الحكم ذرية جلال الدين .

وبعد أن تولى شهاب الدين الحكم ، أرسل يشكو للسلطان سليمان من اعتداءات البرتغاليين المتكررة على التجار في البحر . فرد عليه السلطان ، قائلاً : « وما عرض من قضية تعرض المتعرضين المفسدين الكاذبين الباغين المتمردين دمرهم الله إلى يوم الدين المسافرين الواردين من تلك الولاية من طريق التجار العابرين الذاهبين ولسفائينهم ومراكبهم وبنهب أموالهم وكسر آمالهم بل بإراقة دمائهم وقطع أرجائهم على خلاف رضائنا الشريف الخاقاني وما يلزم ويلزب ويتحتم ويجب قطع ايدي تعرضهم بدفعهم ورفعهم وقلعهم وقمعهم

(١) Parry and Others : *op. cit.*, pp. 99,100.

(٢) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٤ ، ص ٤٤ بغداد ١٩٤٩ .
لم تتوغل القوات العثمانية صوب البصرة إذ اكتفى السلطان بإعلان راشد بن مغاس ولاءه له . ولكن لم تلبث العساكر العربية أن تمردت على الحكم الجديد . فرحفت القوات العثمانية إلى البصرة واستولت عليها ١٥٤٦ م ، ثم زحفت هذه القوات إلى الإحساء سنة ١٥٥٥ م ، وإلى ما وراء ذلك حتى مسقط . ولكن لم يدم حكم العثمانيين طويلاً في المناطق الواقعة فيما وراء الإحساء ، لأنهم وصلوا إلى هذا الميدان متأخرين بعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم في تلك النواحي . [د. عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، ص ٦ ، ٧ القاهرة ١٩٦٨] .

وتدارك ضبطهم وتدبير دفعهم وقلعهم من أهم المهام وأتم المفترضات فلا نرضى بالتأخير في التدارك والتدبير ومرسومنا هذا لهذا الأمر الخطير فلا بد على رقاب حراس الممالك أن يدفعوه ويستعجلوا في دفعه ويسلكوا فيه أوضح المسالك حتى يسير عامة الرعايا وكافة البرايا في أيام دولتنا وكنف عدالتنا على كمال الأمن والأمان والرفاهية والاطمئنان فإذا وقع مثل ذلك فلا بد من دفعه لكل من يقدر على دفعه ثم اعلام المتمردين وعرض من لا يمتنع بالمنع عن الفساد ولا بد أن يكون هذا عادة مستمرة وضابطة مستقرة وفق أمرنا إلى يوم الجزاء إن شاء الله تعالى ومن قصد التبديل والتحويل وخالف وعاند في أمرنا العامل الجليل فالله خصمه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)^(١) .

واصل السلطان سليمان القانوني سياسته الرامية إلى تأمين مداخل المياه العربية في الجنوب ، فأرسل القبطان المشهور سلمان الرئيس للاستيلاء على اليمن . وصل سلمان إلى جده ، وهناك وجد أخاه حسين بك ، فتحالف معه على قتال البرتغاليين . بدأ الأخوان العمل سوياً ، فتمكنوا من الاستيلاء على جزيرة كمران اليمنية الواقعة على البحر الأحمر من يد البرتغاليين^(٢) . ثم تحركا إلى اليمن واستطاعا الاستيلاء على بعض أجزائها سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٩ م) . وقد ترك سلمان أخاه حسين حاكماً عليها ، وعاد هو إلى السويس ، بعد فشله في الاستيلاء على عدن . ولكن سليمان باشا الخادم تمكن من فتح منطقة زبيد في ٩ شوال ٩٤٥ (مارس ١٥٣٩) ، ثم فتح عدن .

احتدم الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين بعد هذه الفترة . فقد كان هدف العثمانيين تطهير المناطق الساحلية والقلع في جنوب الجزيرة العربية والخليج من البرتغاليين ، الذين تمكنوا من انتزاع بعض المناطق بالقوة من أهلها . وكان هدفهم أيضاً ، سد المداخل الجنوبية للمياه العربية في وجه الأسطول البرتغالي ، وتأمين المناطق العربية الواقعة بالقرب منها . وكان البرتغاليون يهدفون إلى السيطرة على المناطق الاستراتيجية الحساسة في المياه العربية وعلى

(١) نص الوثيقة بالعربية في كتاب منشآت السلاطين ، لأحمد فريدون ، م ١ ، ص ٦١٢ استانبول ١٢٧٤ هـ .

(٢) يقول قطب الدين النهروالي : « وكانت الفرنج تكن في كمران ويتخطفون المسلمين من السواحل وينهبون ما يقدرون على نهبه ، فلما وصل سلمان الرئيس دفع ضررهم ، وقتل منهم جماعة وأسروا جماعة ، ونظف ساحل اليمن منهم . [البرق الجاني في الفتح العثماني ، ص ٣٩] .

الشواطئ أيضاً ، لتأمين تجارتهم والقضاء على خطر العثمانيين عليهم ، خاصة بعد أن تأكدوا من أن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تواجههم في مياه الهند .

كان البرتغاليون يهدفون إلى السيطرة على البحر الأحمر ، للوصول إلى مصر . فدخلوا البحر الأحمر وتقدموا فيه حتى وصلوا إلى ميناء جده وأرادوا الاستيلاء عليه . ولكن دفاع محافظ القلعة من ناحية ، والعربان الذين في معية أمير مكة أبي نجي من ناحية أخرى ، رد المغيرين على أعقابهم . ولما فشلوا تقدموا شمالاً حتى وصلوا إلى السويس ، وأرادوا إحراق الأسطول العثماني الموجود في الترسانة البحرية هناك ، ولكنهم لم يوفقوا ، إلا في إحراق طور سيناء سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م)^(١) . فعادوا إلى عدن حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها ، ولكن قبطان السويس بيري الرئيس ، تمكن من تخليص قلعة عدن وميناءها منهم .

وبعد ذلك ، أمره السلطان بالاجار إلى الهند للتصدي للبرتغاليين سنة ٩٥٨ هـ (١٥٥١ م) ، فاستقل بيري ثلاثين سفينة من السويس ، ثم وصل إلى جده واستراح هناك يومين . وبعدها أكمل رحلته ، فوصل إلى سواحل عمان ، واستولى على مسقط . ثم اصطدم بالأسطول البرتغالي المكون من سبعين سفينة في هذه المياه ، وتمكن من التغلب عليه . وحاصر البرتغاليين الذين احتموا في قلعة هرمز بعد هجومه على الجزيرة التي سبق لهم الاستيلاء عليها ، ولكنه لم يتمكن من دخول القلعة . فنهب المدينة لأنها كانت تساعد البرتغاليين . وتوجه فوراً من هناك إلى البصرة ، وطلب المساعدة من الوالي العثماني قباد باشا . ولكن الوالي ، قال له : « لقد ظلمت المسلمين ونهبت أموالهم ، وحق لي أن أقبض عليك ، وأستولى على ما معك من أموال » . وعندما علم بيري بأن البرتغاليين عازمون على غلق خليج البصرة ، اندفع فجأة إلى البحر ومعه ثلاث سفن ، ثم ولى هارباً . وترك جنوده وسفنه الباقية في البصرة . وبعد أن ضل الطريق في البحر ، وصل إلى السويس سنة ٩٦٠ هـ ، ثم إلى مصر . وكتب والي مصر إلى السلطان العثماني بما حدث ، فتقرر قطع رأسه في ديوان مصر ومصادرة أمواله ، لأنه رفع الحصار عن هرمز وترك جنوده وسفنه في خليج البصرة .

(١) يذكر اسماعيل حقي في موضع آخر من كتابه ، أن ذلك حدث سنة ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) . [التاريخ العثماني ، ج ٢ ، ص ٥١٥] .

ثم مُنح مراد الرئيس منصب قبطان السويس خلفاً لبيري ، بعد أن قدم قباد باشا أمير البصرة شكوى إلى السلطان العثماني بما حدث من بيري بعد هروبه مباشرة . وقد كان مراد هذا يشغل منصب أمير القطيف ، قبل اختياره لهذا المنصب . ومما يذكر أن مراد الرئيس لم يوافق على الهروب مع بيري ، وظل ثابتاً في مكانه مع سفنه وجنده . ولما عين في هذا المنصب الجديد ، طلب إليه السلطان أن يظل في خليج البصرة ، لزيادة نشاط البرتغاليين في الهند والبحر العربي . انتهز مراد الرئيس الفرصة ، فاستقل سبع عشرة سفينة من خليج البصرة ، وتوجه فوراً إلى جزيرة هرمز حيث الأسطول البرتغالي . ثم اصطدم به ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، لم يوفق مراد فيها . ورجع مرة أخرى إلى خليج البصرة ، بعد أن فقد بعضاً من مشاهير الربانة ، مثل سليمان الرئيس ورجب الرئيس . ولم يعامل مراد معاملة بيري ، نتيجة الخطأ الذي ارتكبه ، ولكنه عزل سنة ٩٥٩ هـ (١٥٥٢ م) . وهكذا حصر أسطول السويس في خليج البصرة ، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على إحدى قطعه .

وبعد ذلك عين سيدي علي الرئيس مكان مراد سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٣ م) . وكان سيدي علي أحد قواد ترسانة السويس . فسافر على عجل ، لتدارك الموقف في الخليج ، وتخليص السفن المحاصرة في ميناء البصرة . وقد سلك سيدي علي طريق حلب البري إلى البصرة . وبعد أن وصل إليها ، استقل خمس عشرة سفينة من خليج البصرة ، وتوجه بها بجذاء ساحل بلاد فارس ، حتى وصل إلى القطيف أمام البحرين ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى سواحل عمان ، قاطعاً الرحلة في أربعين يوماً . وعند سواحل عمان دارت معركة حامية بين سيدي علي والأسطول البرتغالي ، المكون من خمس وعشرين سفينة . وقد تمكن البحار العثماني من إغراق سفينة برتغالية واحدة ، وفرت بقية السفن محتمية تحت استار الظلام . ثم واصل سيدي علي السير حتى وصل إلى سواحل مسقط ، وعند الميناء برزت إليه اثنتان وثلاثون سفينة برتغالية . ولما كان البحار العثماني لا يجيد الحرب والمناورة في وسط البحار ، أثر أن يسير قريباً من الشاطئ . والتحم الأسطولان في معركة طويلة ، لم تحسم لأي من الطرفين ، فافترقا^(١) . وبعد ذلك اتجه سيدي علي إلى شواطئ بلاد فارس ، قاصداً الهند .

(١) يذكر لوريمر أن أسطول فرناندو دي نورونجا التقى قرب مسقط بأسطول سيدي علي ، وقد استطاع القبطان البرتغالي أن يأسر ست سفن عثمانية ويطارد الباقي ليحاصره في صورات . [لوريمر : دليل الخليج ، م ١ من القسم التاريخي ، ص ١٧ ، ترجمة مكتب حضرة صاحب السمو أمير دولة قطر . قطر (د.ت.)] .

ولكنه استدار عائداً باتجاه مصر بعد ذلك ، فقذفت به الرياح شرقاً حتى وصل إلى سواحل الهند . وبعد هذه الرحلة الشاقة والجهد المضني ، نزل سيدي علي الرئيس على الشاطئ الهندي عند سورات ، فرحب به واليها رجب خان ، الذي يتبع سلطان الكجرات غياث الدين سلطان أحمد (٩٦١ - ٩٦٩ هـ ، ١٥٥٣ - ١٥٦١ م)^(١) .

وقد كتب رجب خان حاكم سورات رسالة إلى السلطان سليمان ، أخبره فيها بما حدث لسيدي علي . فرد عليه القانوني بفرمان يقضي بإرسال القبطان برأ إلى استانبول ، والاحتفاظ بالسفن وتجهيزاتها لحين وجود فرصة سانحة لإرسالها إلى مصر ، والاحتفاظ بالمدافع في القلعة حتى توجد الفرصة لإرسالها برأ إلى مصر ، أو استعمالها في الجهاد في سبيل الله ضد الكفار . وهذا هو نص الفرمان مترجماً عن التركية^(٢) : «... صدر فرماننا الشريف لبعض الأسطول الهمايوني بالتوجه لمنطقة البصرة فيما سبق . وبينما كان قدوة الأماجد والأكارم قبطاننا سيدي علي زيد مجده متوجهاً من البصرة إلى مصر لإعادة الأسطول إليها ، تلاقى به سفن الكفار المقهورين في البحر . ونشبت بينهما الحرب واستمر القتال . فجنحت ست قطع من أسطوله إلى الشاطئ ، وخرجت إلى البحر تسع أخرى من نوع القادرغ . ولكنها تفرقت وتشتت في الطريق بإرادة الله تعالى بسبب الطوفان والأمطار . وانتبه الكفار الأذلاء الفرصة فطاردوا السفن ، حتى جنحت في آخر المطاف ست منها عند مدينة سورات ، ثم دخلت الميناء . وقد استمرت مراقبة الكفار الأشقياء للسفن في فرضة الميناء لمدة أربعة أشهر تقريباً .

والرجاء ألا تدخروا وسعاً في إرجاع سفن أسطولنا ، علماً بأننا لا نود أن يعود القبطان المذكور بالبحر ، لأن السفن ستسير تحت تهديد الكفار ، واحتفظ بالمدافع في القلعة . وعليك أن تحسن مساعدة العائدين برأ .. لقد صممنا إن شاء الله تعالى ، على إرسال قدر كاف من السفن قرينة النصر ، وعساكر البحرية ، للجهاد في سبيل الله ، ضد الكفار الأذلاء ، الذين استولوا على تلك الديار .. وأرسل تلك المدافع برأ إلى مصر المحروسة في الوقت الذي تجده مناسباً . وإذا لم تجد ذلك ملائماً ، فاستعمل المدافع المذكورة في الفتح

Ismail Hakki: Gecen Eser, s. 397-399.

(١)

(٢) نص الفرمان بالتركية في ص ٦١٧ ، ٦١٨ من منشآت السلاطين لأحمد فريدون .

والجهاد ومحاربة الكفار الضالين الأذلاء...» .

وبعد ذلك أرسل السلطان العثماني فرمانا آخر لأحمد خان حاكم البحرين ، يخبره فيه بما حدث لسيد علي . وقد تضمن فرمان نفس المعلومات التي وردت بما أرسل إلى حاكم سورات . وأشار عليه السلطان في نهايته بأن يتشاور مع رجب خان في كيفية إرسال المدافع براً إلى مصر^(١) .

وصل سيدي علي إلى استانبول ومعه خمسون من رفاقه بعد ثلاث سنوات من بدء رحلته . وقد أنعم عليه السلطان سليمان بالمنح والهدايا بعد وصوله .

ثم تولى خضر الرئيس ابن الكردي مكان سيدي علي . وكان على هذا القبطان الجديد ، أن يتصدى للبرتغاليين بعد أن استفحل خطرهم في مياه الهند وسيطروا على جزرها . وامتد نشاطهم إلى البحر الأحمر ، مما دعا قاضي مكة وأمير جدة أن يكتبوا للسلطان العثماني سليمان القانوني سنة ٩٦٧ هـ (١٥٥٩ م) ، يخبرانه بنشاط البرتغاليين في البحر الأحمر . وقد أسرع السلطان بإرسال أوامره إلى الوالي في مصر ، لكي يهتم بسرعة بناء السفن في ترسانة السويس^(٢) .

وبعد ذلك بعدة سنوات ، أرسل سبستيان ملك البرتغال رسالة مع سفيره إلى استانبول ، يطلب فيها من السلطان العثماني العمل على إيقاف العداء بين الطرفين في أراضي الهند ومياهاها . فرد عليه السلطان بالموافقة في ٢٨ المحرم ٩٧٢ (سبتمبر ١٥٦٤) . وهذا هو نص الرد مترجماً عن التركية : (٣) «... بعناية الله سبحانه وتعالى وجلاله .. تستظل تحت جناح دولتنا رعايا الشرق والغرب . وحيث أن ذاتنا السلطانية تبذل المزيد من الشفقة والرحمة على الرعايا باستمرار ، فإنها لا تفرغ من إظهار الصداقة المطلوبة ما دامت من أجل رفاهية الرعايا والتجار في تلك الأنحاء . وقد أرسلنا أوامراً إلى حكام ممالكنا المحروسة ، لكي

(١) نص فرمان بالتركية في ص ٦١٨ ، ٦١٩ من م ١ من منشآت السلاطين لأحمد فريدون .

(٢) نص الوثيقة بالتركية في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، بعنوان : مهمه دفتري ، رقم ٣ ، ص ١٩٥ .

(٣) نص الوثيقة بالتركية في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، بعنوان : مهمه دفتري ، رقم ٥ ، ص ٧٠ .

يوفروا الأمن والأمان لرعايا الممالك المحروسة وتجارها الذين يبلاد الهند وفي الجزر وفي سائر تلك النواحي سواء منهم من في البر أو البحر...» .

وبعد مدة وجيزة ، تعالت شكوى التجار القادمين من الهند من اعتداء البرتغاليين عليهم . وقد استلزمت هذه الأوضاع من الدولة العثمانية أن تزيد من إرسال السفن إلى مياه الهند ، وأن تحاول عقد الصلح مع البرتغاليين في نفس الوقت لتأمين شرفهم . أرسل السلطان سليمان القانوني رسالة أخرى إلى سبستيان ملك البرتغال في ربيع الآخر ٩٧٢ هـ (نوفمبر ١٥٦٤ م) يدعو إلى الصلح . وهذه ترجمة لها عن التركية : ^(١) «... جاءتنا رسائل من رجالنا وحكامنا في قلعة ديو ومن محافظي حدودنا في العراق العربي وفي سائر تلك الأنحاء ، يظهرون فيها رغبتهم في العيش في سلام . وقد علمنا أن الحجيج والتجار القادمين من تلك النواحي بطريق البحر ، قد تعرضوا للعدوان . فإذا كنتم تريدون الصلح ، فارفعوا أيديكم عن الحجيج والتجار ، بمجرد وصول رسالتنا السلطانية إليكم . وارسلوا رسلكم الذين تثقون فيهم إلينا برسالة تتضمن القرار الخاص بانتظام الأمور في تلك الجهات...»

كانت أقوى الدول الإسلامية الموجودة في جزر الهند هي دولة آجه أو آجين التي تحكم جزيرة سومطرة وشبه جزيرة ملقة . وقد استغاث سلطانها علاء الدين بالعثمانيين لنجدهته ضد البرتغاليين ، فأرسل رسوله إلى السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٢ هـ (١٥٦٥ م) . وحمله رسالة فصل فيها ما وقع من البرتغاليين ضد الحكومات الإسلامية في المنطقة ، مثل حكومتي سيلان وكلكتا . وبعد أن وصل الرسول إلى استانبول بقليل ، توفي السلطان العثماني . لبي السلطان الجديد سليم الثاني ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ (١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) نداء الاستغاثة ، فوجه خضر الرئيس على رأس حملة بحرية ، مكونة من تسع وثلاثين سفينة ، أبحرت من خليج السويس . وفي تلك الأثناء حدث تمرد في اليمن ، فصدرت الأوامر للأسطول المسافر بالتوجه إلى اليمن ، وإرجاء مهمة الهند إلى وقت آخر . وبعد مدة من الزمن أرسلت سفينتان مجهزتان إلى دولة آجه ^(١) .

(١) نص الوثيقة بالتركية في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، بعنوان : مهمه دفترى ، رقم ٦ ، ص ١٦٦ .

(٢) Ismail Hakki- Gecen Eser, s. 400.

لم يتوقف الخطر البرتغالي لحظة . وقد دفع هذا العثمانيين لكي يفكروا ملياً في تقوية أسطولهم في السويس ، عن طريق مده باستمرار بالسفن اللازمة ، من الترسانات العثمانية الأخرى الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط وبحري إيجيه وممره . وقد استوجب هذا منهم — بعد أن عجزت ترسانة السويس عن الوفاء بمتطلبات المواجهة وحدها — أن يدرسوا مسألة شق قناة تربط البحر الأبيض بالأحمر ، لكي تتحرك سفنهم بحرية بين البحرين ، ولكي يمدوا البحر الأحمر دوماً بالسفن التي يتطلبها الموقف على شواطئه وسواحله أو على شواطئ مياه الهند والخليج العربي بسرعة .

أرسل السلطان سليم الثاني فرماناً لوالي مصر مسيح باشا الخادم (٩٧٥ — ٩٨٨ هـ = ١٥٦٧ — ١٥٨٠ م) بهذا الخصوص في ١٢ رجب ٩٧٥ هـ (ديسمبر ١٥٦٨ م) . وهذا هو نص فرمان مترجم عن التركية : ^(١) « يتفاخر السلاطين العظام والخواقین الفخام بأنهم يلقبون بخادم الحرمين الشريفين ^(٢) ، ويفضلون هذا اللقب . الحمد لله تعالى أن نلت هذه السعادة بيسر . وأقصى ما أتمناه أن تنتظم أحوال هذه الأماكن وأطوارها على خير وجه . أما والحالة هذه ، فقد اعتدى البرتغاليون الملاعين على بلاد الهند واستولوا عليها . وسدوا طرق المسلمين الذين يفدون من هذه الأنحاء على الحرمين الشريفين . ولا يجوز أن يستولي على عرش الحكم الكفار الأذلاء الذين هم من غير المسلمين ... أصبح من الضروري تخليص بلاد الهند من يد الكفار ، وإزالة بهم أيضاً من بعض القرى التي أضلوها في أطراف الحرمين الشريفين وأكنافها . وعلى هذا ، ينبغي إحضار الأسطول السلطاني كله وإعداده . ومن المناسب في هذا الخصوص تماماً شق قناة لمرور الأسطول الهابوني إلى خليج السويس .

وبعد وصول هذا فرمان إليك ، لا تتأخر ولا تتوان ، واجمع المعارين والمهندسين من

(١) نص الوثيقة بالتركية في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، تحت عنوان : مهمة دفتری ، رقم ٧ ، ص ٢٨٥ .
(٢) أول من لقب بهذا اللقب هو السلطان سليم الأول . فبعد أن هزم قانصوه الغوري في مرج دابق في يوم الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢ (٢٤ أغسطس ١٥١٦ م) ، دخل حلب في يوم الجمعة غرة شعبان (٢٩ أغسطس) ، وأقام صلاة الجمعة في جامع الملك الظاهر . قرئت الخطبة باسم السلطان العثماني ، وقد وصفه الخطيب في خطبته بأنه «مالك الحرمين الشريفين» . فنهض سليم من مكانه واقفاً ، وقال : «من أنا حتى أكون حاكماً للحرمين الشريفين ، إنني افتخر بأن أكون خدام الحرمين لا مالکها» . [أحمد راسم : عثمانی تاریخی ، حاشية ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ استانبول ١٣٢٩ هـ] .

ذوي الخبرة والكفاءة العالية من أهل تلك البلاد [مصر] . ثم أرسل إلينا رجالك الذين تثق بهم على جناح السرعة ، كي نجبرونا بتطور الأمور بالنسبة للربط بين البحر الأبيض وخليج السويس : هل من الممكن شق قناة في هذا المكان ؟ وما طولها ؟ وكم تسع من السفن العابرة ؟ وأعرض علينا المعلومات الكاملة ، كي نناقش مسألة التنفيذ بناء عليها ، لكي تُشق القناة .

وعندما يتم الحفر بمشيئة الله تعالى ، يبدأ الجهاد في سبيل الله في تلك الديار بعناية الله جل وعلا . ويتيسر فتح بلاد الهند والاستيلاء عليها من يد البرتغاليين الكفار . ويدون ذلك في ديوان أعمالنا ويسطر .»

ويبدو أن التكاليف الباهظة لتنفيذ مثل هذا المشروع الضخم ، حالت دون تنفيذه ، نظراً لاختلال النقد والاقتصاد العثماني بعد سليمان القانوني .

كانت جمهورية البندقية أقوى الدول البحرية في البحر الأبيض المتوسط منذ أن قامت الدولة العثمانية وحتى منتصف القرن التاسع الهجري (منتصف الخامس عشر الميلادي) . وكانت أساطيل البندقية المتفوقة ، تصطدم كثيراً بالأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط . وكان على البحارة العثمانيين أن يتعلموا شيئاً من مهارة البنادقة . ومنذ عين كمال الرئيس قبطاناً ثم بربروسا بعد ذلك ، أصبح العثمانيون متفوقين بحرياً في البحر الأبيض حتى منتصف القرن العاشر الهجري (منتصف القرن السادس عشر الميلادي) .

وفي ١٧ جمادى الأولى ٩٧٩ هـ (٧ أكتوبر ١٥٧١ م) تمكن الأسطول البندقي بمساعدة أسطول أسبانيا وأسطول البابا وأسطول مالطة من تدمير الأسطول العثماني في معركة ليباني (أينة بخي) البحرية . وبعدها . قام الصدر الأعظم محمد باشا صوقللي ببناء أسطول جديد خلال مدة قصيرة تبلغ خمسة أشهر . فقد أصدر أوامره إلى كل الترسانات العثمانية بالعمل ليل نهار ، لتدارك الموقف . وقد عمدت الدولة إلى تعزيز قوة الأسطول المدفعية ، فاستوت ومدفعية البنادقة ، من حيث عدد المدافع على الأقل^(١) . ولما أيقنت البندقية من قوة

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، ط ٧ ، ص ٤٧٠ ، ٤٧١ بيروت ١٩٧٧ .

الأسطول الجديد ، سعت لعقد الصلح مع الدولة العثمانية .

وبعد القباطنة الذين أعقبوا خير الدين بربروسا ، مثل : طورغود باشا وعلي قليج باشا وصالح باشا وأولوج حسن باشا . أي بعد سنة ٩٩٩ هـ (١٥٩٠ م) ، بدأت البحرية العثمانية تفقد تأثيرها وتفوقها ، نظراً لعدم ظهور قباطنة مهرة ، ولعدم اهتمام الدولة العثمانية بتطوير صناعة السفن الحربية ، التي أصبح الأوروبيون يولونها أهمية بالغة . وقد ترتب على ذلك توالي الهزائم في معارك كثيرة في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)^(١) . وتفوق البحرية البندقية والبحرية البرتغالية على الأسطول العثماني . بعد أن كان للعثمانيين التفوق البحري في البحر الأبيض المتوسط في عهد سليمان القانوني ، بفضل اهتمامه بصناعة السفن الحربية ، وباختيار قباطنة مهرة لقيادة هذه السفن^(٢) .

Ismail Hakki - Gecen Eser, cilt 3, 'isim 2, s. 315.

(١)

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، م ١ ، ص ٢١٠ استانبول ١٣٣٠ .